لا شيء سوى الظلام

info@darak-egy.com
02 24832669-010 27251915
51 ب شارع النزهة – من امتداد رمسيس – القاهرة.
جميع حقوق الطبع والتوزيع محفوظة للناشر.

لاشيء سوى الظلام

اسم النص الأصلي: Nothing but the night

اسم المؤلف: john blackburn

ترجمة: شيرين هنائي

تصميم الغلاف: أسامة علام

تدقيق لغوي: سارة صلاح

رقم الإيداع: 2020/20257

الترقيم الدولي: 978-977-8639-43-5

الطبعة الأولى: 2020

جون بلاكبِرن

لا شيء سوى الظلام

رواية

ترجمة

شيرين هنائي

دارك
للنشر والتوزيع

مقدمة

أربعة أشخاص هم من وجدوا هيلين فان ترايلن، وثلاثة منهم كانوا أصدقاء مقربين لها.

اللورد مايكل فاونلي قد عرفها منذ كانت طفلة، والطبيب إيريك بيتس مُستشارها الطبي ومُتوَلٍّ تطبيبها أثناء فترات مرضها المتكررة، وجين فِنس مُدبرة منزلها ورفيقتها طيلة عشرين عامًا.

وكان راع من كنيسة إنجلترا – السيد جلوسيب- هو الاستثناء، لم يكن صديقًا لها، لكنه كان قد استُدعي لتحصيل اشتراك منظمة أوكسفام.

كان فاونلي وبيتس يتحدثان إلى جلوسيب عندما سمعا الانفجار، وكونهما مُسنين، فقد أخذا وقتًا طويلًا حتى صعدا الدرجات، وقد سبقهما رجل الدين.

عند مُنعطف السّلم، قابلا جين فِنس وماري فالي، وهي طفلة صغيرة من دار ترايلِن لرعاية الأيتام، وكانت تُقيم مع راعيتها منذ أسبوعين.

كانتا تبكيان ولم تقدر الآنسة فِنس على شيء سوى الإشارة نحو باب حجرة النوم.

كان بيتس هو أول من دخل الحجرة، وابتسم هو وفاونلي في ارتياح عندما اعتادت عيونهما الظلام.

قال فاونلي:

- حمـدا للـه يـا إيريـك. كان هـذا صـوت ماسـورة عـادم سـيارة في الشـارع، وجـين تكـبُر في العمـر مثلنـا وتتخيـل أشـياء؛ لأنـك تقلقهـا وتخيفهـا بشـأن حالـة هيلـين الصحيـة.

كانـت السـتائر نصـف مُسـدلة، وفي غبشـة الأصيـل اسـتطاعا أن يريـا صديقتهـما مُمـدَّة عـلى الأريكـة في وضـعٍ مألـوف لديهـما. كانـت ترتـدي معطفهـا المنـزلي الأزرق المُعتـاد، وعصـا مشـيها جوارهـا، وقـط حبـشي يُدعَـى أوسـكار وايلـد مُتكـورٌ عنـد كتفيهـا كأنمـا يحـرس سـيدته الغافيـة.

هنا أضاءت جين فِنس النور، وصرخت!

كان بـين كفـي صديقتهـما المُغضّنتـين مُسـدس صغـير، وأوسـكار وايلـد عنـد كتفيهـا يلعـق مـا تبقـى مـن وجههـا الدامـي.

***

- ثمـاني زجاجـات خـضراء، مُعلقـة فـوق السـور.. ثمـاني زجاجـات خـضراء معلقـة فـوق السـور..

صدحـت أصـوات الأطفـال في الحافلـة تعلـو فـوق صخـب الشـارع وزحامـه، وفـوق دقـات سـاعة الكنيسـة مُعلنـة السـاعة السادسـة.

عامٌ قد مضى على وفاة هيلين فان ترايلِن..

- ولـو سـقطت زجاجـة خـضراء ووقـع عليهـا الـدور، سـتظل سـبع زجاجـات خـضراء معلقـة فـوق السـور..

عـبر سـائق الحافلـة زحـام طريـق مارفـورد. ابتسـمت سـيدتان عـلى جانـب الطريـق للأطفـال الراكبـين يغنـون ويصخبـون.

فكرت السيدتان - أثناء انتظارهما فتح إشارة المرور كي تعبرا الطريق- أن الأطفال لُطفاء. يبدو عليهم حُسن التربية والهندام. غالبًا هم تلاميذ في مدرسة خاصة في طريق عودتهم من رحلة. يختلف هؤلاء الأطفال عن مثيري الشغب الذين يملأون المنطقة منذ أن بُنيَت المساكن الشعبية.

كانوا يغنون، وتبدو عليهم سعادةٌ جمَّة.

- خمس زجاجات خضراء، معلقة فوق السور..

غمغم سائق الحافلة وهو يزيد السرعة بعد فتح إشارة المرور:

- أوغاد صاخبون!

كان يشعر بالمرض والتعب، والزحام يزداد، وعليه أن يوصل الأطفال لمطار لندن في تمام السادسة والنصف.

- وإذا سقطت زجاجةٌ خضراء...

الصداع يعتصر رأسه، غالبًا من الإنفلونزا. لو يغير اللُّعناء تلك الأغنية لأخرى.. لن يُحدِث هذا فارقًا على أي حال!

لم لا تتولى إحدى تلكما البقرتين المسنتين أمرَ إسكاتهم؟!

نظر السائق رينولدز عبر الممر نحو المرأتين رماديتي الشعر، كانتا غارقتين في حديثٍ طويل ولم تُبدوا واعيتين بما حولهما من صخب وغناء.

لم يعد هناك انضباط كما ينبغي من صِبية هذه الأيام. استعاد أيام دراسته وكيف كانوا يُؤدَّبون ضربًا بالعصي والأحزمة. لم يعد هناك احترام للكبير ولا اعتبار لأي شخص، وكانت السيدة الشقراء جواره أصدَق دليل على ذلك. كلما أنهى الأطفال أغنية، التفتت اللعينة لهم مشجعةً أن يبدأوا بأخرى!

أشعل رينولدز سيجارة كي يهدئ أعصابه المتوترة. السماء صافية، لكن الطريق لا يزال رطبًا جرَّاء أمطار الظهيرة، والساعة قد جاوزت السادسة بثلاث دقائق.

بعد دقيقة بالضبط، وفور وقوع الزجاجة الخضراء التاسعة والأربعين، بدأ رينولدز يفقد السيطرة على الحافلة، فصعدت فوق الرصيف، وانقلبت مخترقة صالة حانة الثور الرمادي. لاحقًا ستحتاج شركات التأمين تدوين عددٍ هائلٍ من الخسائر في المفروشات والحوائط، والتي كانت تحاكي الطُّرُز الفيكتورية والجورجيَّة.

كانت ثمة إصاباتٍ ثلاث: إصابة السائق، وإصابة أحد زبائن البار بقطع في إصبع القدم إثر سقوط فأسٍ كان معلقًا على الحائط، وإصابة فتاة في السابعة تُدعى ماري فالي بجروح وسحجات طفيفة.

ظلت رخصة قيادة رينولدز نظيفة من أي مخالفات طيلة خمسة وثلاثين عامًا، منها ثمانية قضاها في العمل لدى مؤجِّري الحافلات.. وللأسف، توفي رنولدز في المستشفى بعد ساعة من الحادث.

الفصل الأول

- بالطبع تَعُون وجود الأجسام المُضادة في جسد الحيوان..

ابتسم السير ماركوس لَفين الموقر والحاصل جائزة نوبل في الطب، وداعب ربطة عنقه المُنمقة وهو ينظر إلى تلامذته.

- الأجسام المضادة.. تلك المخلوقات الدقيقة التي تعيش متكافلة مع خلايانا وتعد حليفًا لها.. جيشٌ متأهبٌ ضد جيوش العدوى البكتيرية والفيروسية السابقة، والتي تهدِّدنا باستمرار. بدون تلك المؤازرة، يفشل الجنس البشري في البقاء.

توقف ماركوس هنيهة ناظرًا نحو الساعة، لا زال أمامه خمس دقائق ينهي فيهم محاضرته التمهيدية، بعدها يمكنه أن يتناول غداءه في ناديه، ثم يهرع إلى معمل الأبحاث المركزية.

كان سعيدًا في البداية عندما دعيَ لإلقاء سلسلة من المحاضرات في مستشفى «القديس بِيدَه»، لكن تلك المحاضرات بدت له الآن كسدَادِ دَينٍ ثقيلٍ.

على بُعد ثلاثة أميال، في المعمل المركزي، كان ينتظره مخلوق مجهري يَعِد بإنقاذ حيوات الملايين من البشر، وكان يتوق للعودة إليه كي يفحص ما استجد.

أردف مخاطبًا الحضور:

- معروف لديكم خطر الاستخدام العشوائي للمضادات الحيوية، فتلك المواد تقتل الجراثيم التي تهاجمنا، وتضعف كذلك حلفاءنا ودفاعنا ضد العدوى: الأجسام المُضادة. وبدونها يصبح جسد الإنسان مفتوحًا أمام هجمات العدوى المتكررة.

مرت دقيقة أخرى، وبدأ ماركوس في جمع ملاحظاته وأوراقه مُردفًا:

- ما يبحث عنه الباحثون الآن هو حلٌ لتلك المعضلة، عن وسيلة لتغيير طبيعة الأجسام المضادة، لتحويرها لمخلوق يتحمل أسوأ ما سنفعله به كي يصبح أكثر عدائية تجاه الدُّخلاء. هذا سيكون موضوع المحاضرات، وفي الأسبوع المقبل سأجذب نظركم لأبحاث إيدلمان في ميونخ، وتريفور- جونز في نيويورك، وفريق من علماء البكتريا هنا في لندن. كلنا نبحث عمَّا يبدو مستحيلًا: نظام دفاعي خارق ضد الأمراض. لو نجحنا فسيموت البشر من كثرتهم، ومن المجاعات التي ستصيبهم جرَّاءها.. لكن هذه ليست مشكلتي!

ابتسم ابتسامة أخيرة مغلقًا حقيبته، وأضاف في النهاية:

- شكرًا جزيلا لإنصاتكم، سيداتي سادتي. إلى اللقاء في المحاضرة التالية.

انحنى لهم ثم هرول خارجًا من القاعة، طويلًا مهيبًا، لكن إن حدقت في وجهه فسترى المعاناة بادية من تحت مظهره الكيِّس الواثق.

***

قاطع سيره في الممر حارسٌ في المستشفى، وكان مبتهج الملامح؛ كونهما أصدقاء قدامى، وصاح:

- سيدي.. سير ماركوس.. أخيرًا استطعت اللحاق بك. طلب مني العميد أن أوصل رسالة إليك، هو يريد مقابلتك على وجه السرعة.

ابتسم الرجل مجددًا عندما رأى تعبير وجه ماركوس، ثم أضاف خافضًا صوته:

- سيدي، يمكنك الرحيل لو كنت مُتعجلًا، وسأخبر العميد أنني لم ألحلقك. لمعرفتي بالدكتور بلَنكيت، فأنا متأكد إن ما يريدك بشأنه يحتمل التأجيل.

- أنت تغويني.. تغويني بشدة!

كان ماركوس يعرف أن الازدحام في الشارع سيبلغ ذورته عند الساعة الثانية، وكان يريد الوصول إلى معمل الأبحاث في أسرع وقت ليفحص المستجدات، لو أن ثمة مستجداتٍ.

كان يتوقع فشلًا آخر، فلو نجحت تجاربه، سيتغير كل شيء في العالم.

وقف لحظات يُفكر ثم هز كتفيه مُستسلمًا وقال:

- أنت صديقٌ طيبٌ، لكن عليَّ تلبية نداء العميد يا جاكسون.

والتفت ماركوس عائدًا نحو الدَّرَج.

***

صاح عميد المستشفى برايان بلنكيت وهو يمد يده نحو ماركوس:

- يبدو أن جاكسون قد لحقك.. شكرًا لتكرمك علينا ببضع دقائق إضافية. شكرًا لك.

كان بلكنيت رجلًا آيرلنديا مسنًّا سمينًا، ذا لحية رمادية وعينين محاطتين بالبشرة المحمرة، وقد اكتسب لقب «الغرير» بجدارة، فقد كان

شبيهًا بحيوان الغرير في إلحاحه حتى يحصل على ما يطلب، وصار اللقب يُطلق عليه من أجيالٍ من تلامذته وزملائه. فقد الرجل اهتمامه بالطب، وراح يمضي وقته في الاستماع لشكاوى تمويل المستشفى ومشاكل الإدارة.

راح العميد يلهث -وكأنه هو من كان يصعد الدَّرج وليس ماركوس- وهو يقول:

- أتريد سيجارة؟ مشروبًا؟ لُقمة سريعة قبل الغداء؟

هزَّ ماركوس رأسه وقال:

- شكرًا يا دكتور. لا أريد أن أكون وقحًا، لكنني متعجل بعض الشيء، فهل يمكننا الدخول في الموضوع مباشرة؟

- طبعًا، طبعًا.. شباب هذه الأيام في عجلة من أمرهم دومًا.

كان ماركوس في الخامسة والأربعين من عمره، لكن العميد كان يحادثه وكأنه طالب في السنة الأولى من الكُلية.

قال العميد:

- سأكون مختصرًا قدر استطاعتي. بما أنك عضو في مجلس الإدارة الآن، فما سأحدثك فيه من صميم عملك.. هو عمل قد يكون سخيفًا ومُحرجًا لمستشفى القديس بِيدَه. ليس من اللائق أن نضايق الناس، سير ماركوس. خاصة الأغنياء المهمين من الناس مثل أوصياء فان ترايلِن. بالطبع سمعت عنهم.

- سمعت عنهم القليل. هم جماعة خيرية أسَّسَتْها السيدة هيلين فان ترايلِن، أرملة المليونير الأمريكي. أليست هي مَن سمعنا عن وفاتها منذ فترة؟

بدأ العميد في مِلء غليون قديم بالتبغ وقال:

- أجل هي.. توفيت منذ عام سير ماركوس. كانت تعاني من مشاكل في المعدة، واكتشف الطبيب إيريك بيتس إصابتها بورَمٍ غير قابل للإزالة الجراحية. لم يكن لديها سوى المسكنات لتعيش عليها ما تبقى من عمرها؛ لذا فجَّرت رأسها بمسدس. أمرٌ محزن، لكن الجمعية التي أسستها لا زالت تعمل.. تدعى «أخوية فان ترايلِن».

أشعل الغرير عود ثقاب، فتصاعدت سحب رمادية من الدخان غزت أنحاء مكتبه. أردف:

- قصة مؤثرة.. هم عدد من الأغنياء الأرامل بلا أطفال، قرروا تكريس ما تبقى من حيواتهم للخدمة المجتمعية الخيرية. أنفقوا الكثير في أبحاث علاج السرطان وغيرها من الأبحاث الطبية، اشتروا منزلًا ضخمًا عند الساحل الغربي وحولوه لدار أيتام. تلك الدار هي دُرَّة تاجهم، يسكنها حوالي ثلاثين طفلًا، مُجهزة بفريق للتدريس وحمام سباحة، ودار عرض سينمائي، وطبيب متقاعد مُقيمٌ في الجوار؛ لذا، فمن الجنون أن يخسر المرء جمعية تنفق بهذا السخاء.

نظر ماركوس بحدة إلى ساعته قائلًا:

- لديك حق أيها العميد، لكن ما دخلنا بذلك؟

- لنا دخل عظيم يا سير ماركوس. ولو يحق لي القول، لقلت إنه وجبَ عليك أن تضع تركيزك على تلك العلاقات. أعرف مدى أهمية أبحاثك، لكن أحيانًا أظنك تنظر لكل شيء نظرة ضيقة من خلال عدسة مجهر.

انطفأ الغليون، فعكف على إعادة إشعاله ببطءٍ شديدٍ مضيفًا:

- لو أنك تقرأ الجرائد، لعرَفْت أن مجموعة من أيتام دار فان ترايلِن قد تعرضوا لحادث بعد رحلتهم إلى لندن. الحافلة التي كانت تُقلهم إلى المطار ليعودوا إلى إسكتلندا قد انقلبت وحطمت جزءًا من حانة قديمة بالقرب من هونسلو. لحسن الحظ لم تكن الإصابات كثيرة، شخص قُطع إصبعه، وسائق توفي بعد نقله لمستشفانا، وطفلة صغيرة مصابة بإصاباتٍ طفيفة. لا بُدَّ أن تطَّلع على تقريرها الطبي.

ألقى ماركوس نظرة سريعة على التقرير وقال:

- لو كنت مُصرًّا.. جرح في الخد والكتف الأيمن لا يتطلب أحدهما خياطة. كدمات على الفخذين.. بعض أعراض صدمة. لا أفهم شيئًا سيدي العميد. الطفلة سليمة تقريبًا ولربما تكون سُرِّحَت من المستشفى كذلك.

قام العميد من جلسته وراح يذرع الحجرة في غضب هاتفًا:

- أجل. أي رجل عاقل كان سيفترض ما افترضته سير ماركوس. أي طبيب كان ليسرِّح الفتاة فورًا.. لكنها وقعت في يد متخصصي النفسي البارع، زميلك بيتر هَينس. بسبب أعراض الصدمة، طلب الجراح أن تُعرض الطفلة على هَينس، وقد حصل منها على تلٍّ من الترهّات.

فتح العميد خزانة وأخرج منها رزمة من أوراق الفولسكاب، ورماها على المكتب وكأنها شيء مُقرف. أضاف العميد:

- بعد عدة فحوص سريعة للطفلة، المدعوة ماري فالي، توصل هَينس إلى أن الطفلة لا تعاني الصدمة، وإنما تعاني مرضًا عقليًّا قد يكون خطيراً. فكَّر هَينس في أغلب الأمراض العصبية، أو الإنهيار العصبي، أو الفصام..

كلامٌ فارغ.. لا أنا ولا أنت نفهم كثيرًا في علم النفس، لكنَّ كلينا يعرف أن الفصام هو مرض عضوي لا يمكن تشخيصه قبل سن البلوغ.. اقرأ بنفسك.

عقد ماركوس حاجبيه مُحدقًا في الصفحة الأولى من التقرير.. العميد مُحق في كونه وهَينس أصدقاء، لكن ماركوس رغم ذلك يلعن هَينس وخطه البشع.. لماذا لا يكتب تقاريره على آلة الكتابة؟ لماذا يغرقه في سيل من الحروف المُنعقدة الغامضة؟

- هذا أمر بعيد عن قدراتي سيدي العميد..لكن ما هي شهادة السائق التي ظل هَينس يذكرها؟ قلت لي أن الرجل توفي بعد نقله للمستشفى بوقت قليل.

نظر الغُرير إلى التقرير وقال:

- آه.. هذا.. الرجل بالفعل قد مات، لكنه تكلم قبل ذلك.. كان مُهتاجًا قبل أن يفقد الوعي. ظلَّ يكرر إن الطفلة ماري فالي هي المتسببة في الحادث. قال إنها أخذت منه سيجارته وطعنته بها في خده. هراء؛ لأن ثمانية شهود منهم شاهدين بالغين، أقروا أن الفتاة كانت جالسة في كرسيها ولم تتحرك قبل أن تنقلب الحافلة. قالت التحقيقات أن سبب الحادث هو أن الحافلة كانت مسرعة والأرض زلقة. يبدو أن السائق لم يكن واعيًا وهو يشهد تلك الشهادة، ظلت رخصة قيادته نظيفة من المخالفات طيلة حياته، وكان يبحث عن كبش فداء ليتهمه بما حدث.

نظر ماركوس لنهاية التقرير، ووجده مُذيلًا بتوقيع العميد.

- أرى أنك -برغم كل هذا- تؤيد تقرير هَينس.

- أنا أؤيده، برغم أنني لا أميل لهَينس كثيرًا. فالرجل تحت سن الأربعين، ومع ذلك فقد مرَّ بثلاث زيجات فاشلة ولم يستطع الحصول على أي وظيفة سوى هنا، ولم نكن لنقبل به لولا أن لدينا قصورًا في الإخصائيين النفسيين؛ لذا، أرسلت في طلب استشارة طبية، وطلبت من اللورد فاونلي – رئيس مجلس إدارة أخوية فان ترايلِن منذ وفاة السيدة هيلين- أن يترك ماري في المستشفى لإجراء بعض الفحوصات.

- وما كان رد فعله؟

نظر ماركوس لساعته مرة أخرى. لو أن بلَنكيت يعمد إلى بيت القصيد، فسيكون أمامه وقتٌ للغداء قبل الذهاب للمعمل.

أترى التجربة نجحت أم هو فشلٌ جديدٌ؟

الفشل يعني أن تذهب ستة أشهر من العمل الجاد هباء، ويذهب معها أمله في مخلوق مجهري ينقذ الملايين من البشر. لا بُدَّ أن زملاءه في التجربة في طريقهم إلى المعمل الآن.

قال العميد في غيظ:

- لقد قلب اللورد فاونلي الطاولة عليَّ يا سير ماركوس، فقال لي: طالما الطفلة بخير وسليمة جسديًّا، فعلينا إرجاعها إلى دار الأيتام فورًا في إسكتلنده، وأضاف أن الدار مُجهزة بطاقم طبي كامل، وأنهى حديثه بأنه سيرسل موظفًا لديه لأخذ الطفلة في تمام التاسعة من صباح اليوم.

- أرى إنه محق تمامًا. إن لم تعاني الطفلة مرضًا مُعديًا قد ينتقل لزملائها في دار الرعاية، فلا حق لنا في الاحتفاظ بها ضد رغبة أهلها أو المسؤولين عنها. لا يوجد ما نفعله إذاء ذلك.